الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد

موقف الغرب مما يجري في الاتحاد السوفياتي

في أوساط المراقبين للأوضاع الدولية ولا سيما في الإتحاد السوفياتي والعلاقات الجديدة المنعقدة بينه وبين المغرب تتردد، كما قلنا غير مرة ، تساؤلات حول موقف الغرب الحقيقي مما يجري في الإتحاد السوفياتي . هل أن الغرب مقتنع تماماً بما تؤكده أجهزة الإعلام السوفياتية من أن القادة الشيوعيين في موسكو جادون في ارساء ديمقراطية حقيقية نابعة من احترام الكرامة الإنسانية ؟ وهل أن ما يجري في امبراطورية السوفيات الداخلية يتفق حقا مع ما تردده أبواق الاعلاميين ؟ وهل أن في الإتحاد السوفياتي معارضة جدية لزعيم البلاد ميخائيل غورباتشيف ؟ إلى تساؤلات أخرى يجب أن يجاب عنها.

****

ذكرنا في مقالة سابقة أن فريقاً من رجال السياسة الغربيين يعتقد أن كل ما يجري في الإتحاد السوفياتي شيء مفتعل . وأن دعوى الايمان بالديمقراطية مسرحة لا تمثل الواقع الحقيقي . وأفراد هذا الفريق متشائم جدا من المستقبل لعدد من الأسباب في مقدمتها أن كل ما حدث محاولة لانقاذ الاقتصاد والسوفياتي الذي يوشك على الانهيار وأن القيادات فيه لا تزال في أعماقها حريضة على الالتزام بالشيوعية التقليدية وأن أساليب ستالين لا تزال مستخدمة حتى الآن داخل البلاد . ومن أشهر أفراد هذا الفريق رجال من امثال فاليري جيسكار ديستان رئيس جمهورية فرنسا الأسبق ثم كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق ثم وزير الدفاع الأميركي الحالي وجملة من الصحفيين العالميين . وأخيراً يأتي المنشق السوفياتي فلاديمير بوكوفسكي الذي أصدر كتابه " **من الأوتوبيا إلى الكارثة** " وفيما يلي خلاصة لاجابات المتشائمين عن تلك التساؤلات .

****

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

الواقع أنه خلافاً للإعتقادات العامة لا أحد يشكل تهديداً لمكانة غورباتشيف داخل الكرملين . فهو منذ وصوله إلى السلطة في مارس من عام ١٩٨٥ ، استطاع أن يقيد ثمانية أعضاء من أربعة عشر عضواً في المكتب السياسي ، ثم أربعة من ستة مرشحين ، وتسعة من اثنى عشر من سكرتيرته اللجنة المركزية وعلى الأقل نصف أعضاء هذه اللجنة . هذا وقد أعلن غورباتشيف حديثاً في مقابلة مع رجال الصحافة أنه أحدث تغييرات بنسبة ٦٦ في المائة من المسؤولين في الوزارات ، و ٦١ في المائة من الرؤساء الاقليميين في الحزب ومن رؤساء السوفيات المحليين ، و ٦٣ في المائة من سكرتيرية الكانتونات في الحزب.

وبعد هبوط طيار شاب ألماني بطائرته في الساحة الحمراء ، عزل أكثر الكبار من المسؤولين . وباختصار ، يجب أن يكون غورباتشيف متمتعاً بتأييد الأكثرية الساحقة في كل المواقع صانعة القرار.

****

وفوق هذا كله فان مؤتمر الحزب السابع والعشرين ، وهو السلطة العليا في النظام السياسي السوفياتي، قد أقر بصورة رسمية اصلاحات غورباتشيف . وبعد ذلك وفي اللقاء الحزبي التاسع عشر تكررت هذه الظاهرة . أما الصحافة فقد أبرزت هذا اللقاء على الصورة التي كشفت فعلاً عن قوة غورباتشيف، ظهر فيه التصادم النهائي العام بين الإصلاحيين والمحافظين ، فيه كان يخاطر غورباتشيف لاحتمال سقوطه . لكن الذي حدث أنه سيطر تماماً على كل المناقشات وحصل عملياً على كل ما كان يطالب به . وإذا كانت هناك أصوات شاذة ، فهي الأصوات التي تطالب بالمزيد من الغلاسنوسرت والبيريسترويكا ، وليس العكس . فأين اذاً يكمن المحافظون السريون الذين يهددونه فيما يدعيه بعضهم بنفيه إلى سيبيريا ؟

****

ولنقرر فرضاً أنه توجد قوى داخلية كبيرة يحتمل أن تتصرف مع غورباتشيف وأنصاره ، من مثل خصوم خروتشيف الذين فعلوا ما فعلوه منذ ربع قرن . الواقع بعد كل شيء أن خروتشيف قد تمت ازاحته من قبل أولئك الذين عينهم هو شخصياً . وبعد كل شيء ربما كانت للأعضاء ميول إلى أن يصبحوا محافظين بعد وصولهم إلى قمة السلطة . وربما لا يوجد عدد كاف من الاصلاحيين الحقيقيين في الحزب

كله لملء الالاف من المراكز الرئيسة . لكن الثابت أنه إذا كانت اجراءات التطهير الشامل التي قام بها غورباتشيف لم تكف لتزويد البلاد بالعدد المطلوب ، فنحن لا نرى كيف وأين عساه يبحث عن الأكثرية الاصلاحية المقنعة !

ومهما يكن الأمر ، إذا كان المحافظون بمثل هذه القوة فلماذا يكنهم بصورة صريحة وعلى المكشوف ؟ لماذا يعرض نفسه لهذا الضجيج النابع من الغلاسنوسرت والبيريسترويكا ، والأقالات العشوائية لزملائهم والحملات التي يشنوها ضد امتيازاتهم ؟

هناك سببان فقط يمكن أن تفسر بهما هذه السلبية ؟

السبب الأول ، كما تقرر النخبة القائدة دون ابهام أو غموض ، هو الإنهيار المستمر للإقتصاد السوفياتي الذي وضع البلاد عند حافة الهاوية .

وكما قال غورباتشيف في " خطاب التاج " أمام اللجنة المركزية بكامل أعضائها " أن مواقع الاشتراكية في العالم المعاصر " ستتعرض لضعف شديد إذا لم يبادر الحزب إلى القيام بتغييرات جذرية . وهذا يعني أن الاتحاد السوفياتي لن يستطيع الحفاظ على موقعه كقوة عظمى وعلى امبراطوريته كما لا يستطيع الاستمرار في منافسته العسكرية للغرب . وبتعبير آخر ، فان وضع البلاد هو من السوء بحيث أن على أسوأ المحافظين أن يغامروا في تبني البيريسترويكا الغورباتشيفية لانقاذ نظامهم السياسي ، ومكانهم في السلطة ، وبعض امتيازاتهم على الأقل .

****

أما السبب الثاني ، فهو أن نجاح الغلاسنوسرت في الغرب ، والرغبة الشديدة في مساندة غورباتشيف قد تمت ترجمتها إلى ملايين من الدولارات وإلى حالة انفراج جديدة . إن هذه الرساميل الكبيرة بالإضافة إلى حالة الانفراج ، قد قللت من الضغوط التي كانت تهدد باسقاط النظام السوفياتي .

هاتان النتيجتان يجب أن تكونا كافيتين لاحداث تعويض واسع وكبير عن التضحيات الصغيرة التي يجب على المحافظين أن يقوموا بها .

وهنا لا يسعنا أن نتجاهل منطق الأشياء : فاما أن هؤلاء المحافظين السريين هم أقلية عاجزة عن السيطرة على الإصلاحيين (وفي هذه الحالة يسهل تجاهلهم) أو أنهم يشكلون اكثرية وافقت على مبدأ البيريسترويكا والغلاسنوسرت باعتبارهما الأقل شراً . وفي كل الأحوال ، فانهم لن يشكلوا أي تهديد للإصلاحيين ما دام أن الاتحاد السوفياتي إلى مخرج ، وما دام أن الاصلاحات والاضطرابات التي تترتب عليها لم تنتزع من المحافظين ما يتمتعون به من النفوذ والسلطان .

****

وإذاً فلا يهم من بعد أن يكون غورباتشيف من الاصلاحيين أو من المحافظين ، إذا كان غير قادر على الذهاب إلى أبعد مما يسمح له به المحافظون . فلماذا يجب أن يعمل الغربيون عقولهم ويحكوا رؤوسهم للتمييز بين المحافظين والاصلاحيين ؟ فهم في التحليل الأخير ، لا يتعاملون إلا مع القيود والتضييقات التي يفرضها الأولون على الثانين ؟ عندما يقدم العالم كله على مساعدة غورباتشيف بحماسة شديدة بواسطة مليارات الدولارات ، واتفاقات حول خطط التسليح ، فمن هو المساعد في الحقيقة والواقع ؟ أن المساعدة من الخارج تخفف من الحاجة إلى الاصلاحات الداخلية . والثابت أن المحافظين يفضلون هذه المساعدة، بالقدر الذي يقل ضغطها على مكانهم من السلطة . وكلما زاد الوضع السوفياتي صعوبة ، كان على المحافظين أن يضحوا بالمزيد من الامتيازات .

إن حرارة الغرب وحماسته من أجل غورباتشيف أمران يدعوان إلى السخرية . فالغرب ينسب إلى غورباتشيف كل فضل ذي إيجابية ظاهرة فيما يجري من التطوير ويلومون المحافظين وينسبون إليهم كل واقعة سلبية . والمثل على ذلك أن الغرب ينسب إلى غورباتشيف الفضل في تسريع ثلاثمائة سجين سياسي تقريباً ، مع العلم أن مئات كثيرة من الناس لا يزالون في السجون . هذا التناقض الصريح لا يخدش سمعته أبداً ، ذلك أن الغرب يبرره على أنه حدث بسبب الرغبة في تحديد سلطته . فإذا كان هذا هو الحال فان وضعه يمكن أن يكون أضعف من وضع خروتشيف ، الذي استطاع أن يحرر الملايين عام ١٩٥٦ م رغم وجود معارضة حقيقية من قبل الحرس القديم .

مـرة أ خـرى لا سـبيل إلى تجنـب أحـد خيـارين : امـا أن غورباتشـيف ضـعيف جـداً بحيـث لا يسـتطيع أن يحـرر مجموعـة قليلـة مـن السـجناء وأمـا أنـه لا يريـد تحريـر السـجناء وأنـه لـيس زعيمـاً اصـلاحياً . ففـي هـذه الحالة أو تلك ، ندرك أن الضغط وحده هو الذي يسهل الخطوات الاصلاحية وبالتالي تحرير المساجين .

****

لمـاذا يظـن الغـرب أن غورباتشـيف أصـلاحي ليـبرالي ؟ لا شـيء في مسـؤولياته السـابقة يميـزه مـن الحـرس القـديم الـذي دفعـه إلى الأمـام ، وشـكله تم رقـاه . أنهـم رجـال أنـدرويوف وسوسـلوف وكولاكـوف الـذين اختـاروه ووقفـوا إلى جانبـه ، وفيمـا بعـد سـانده كـل مـن اوسـتينوف وغروميكـو لـيس واحـد مـن هـؤلاء يمكـن أن يعتـبر ليبراليـاً . وزيادة علـى ذلـك ، فـإن رجـلا يلتحـق بالحـزب عـام ١٩٥٢م (خـلال معركـة سـتالين الأخـيرة ضـد اليهـود المثقفـين) ، ثم يصـبح عـام ١٩٦٦ بعـد إزاحـة خروتشـيف رئيسـاً اقليميـاً في الحـزب ، وفي عـام ١٩٧١ م عضـواً في اللجنـة المركزيـة تم عضـواً في المكتـب السياسـي عـام ١٩٨٠ م لا يمكـن أن يكـون اصـلاحياً متحمسـاً . بـل أن مـن الطبيعـي أن يعتـبر مسـؤولاً بـين المسـؤولين عـن مرحلـة الكسـاد البريجنيقـي ، الذي ينتقده اليوم بشدة . واذاً فان من المضحك أن يصنف اليوم وجهاً جديداً من وجوه الكرملين .

يضـاف إلى مـا سـبق أن الغـرب ينسـب إليـه كـل السياسـات الاصـلاحية ومبـدأي البيريسـترويكا والغلاسنوسـرت . حـتى أن السـيدة تاتشـر رئيسـة الحكومـة البريطانيـة تعلـن مؤكـدة " حبهـا لـه ": وتصـفه بالشـجاعة وتقـول : أن في الوسـع التعامـل معـه . والواقـع أن احـداً لم يكـن يتوقـع ظهـور مثـل هـذه السـذاجة في رأس سياسي غربي . وأن أحداً لا يصف بالشجاعة حتى في الغرب رجلاً خلف وراءه سفينة غارقة .

****

أن معـنى مضـاداً بمثـل هـذا الوضـوح يصـدر عـن سـوء فهـم لماهيـة نظـام دكتـاتوري . فـنحن احببنـا غورباتشـيف ام كرهنـاه فاننـا لا نتعامـل مـع فـرد بـل مـع نظـام سياسـي . أن السـكرتير العـام مـن الحـزب الشـيوعي في الإتحـاد السـوفياتي لـيس كائنـاً بشـرياً ، بـل هـو وظيفـة ومسـؤولية . وميولـه الشخصـية لا قيمـة لهـا

أبداً ذلك لأنه ليس قيصراً ، والنظام السوفياتي ليس أوتوقراطية . أن ظهور زعيم جديد لا يعني سياسة جديدة بصورة اوتوماتيكية . بل هو العكس : فقرار تغيير السياسة يقود إلى تغيير القيادة .

هذا العامل من التجديد صحيح في حالة غورباتشيف . فسياسته المتعرجة الخاصة بالغلاسنوسرت والبيريسترويكا قد عينت أبعادها قبل أن يصبح سكرتيراً عاماً . وفي ضوء بعض المعلومات ، أن المبادىء الرئيسة قد تم اعدادها في الفترة الأخيرة من عهد بريجنيف ثم عهد اندرويوف القصير .

****

إن القضية ليست قضية أن الحزب يريد أن يحسن ظروف العيش عند الجماهير . بل العامل الأول هو انهيار الاقتصاد الكارثي ، الذي كان يهدد الاتحاد السوفياتي كقوة عظمى . والغرب لم يحظى حين أدرك بأن أصل الأزمة القائمة هو الاقتصاد . لكنه أخطأ جداً حين لم ير بأن أزمة في نظام سياسي يمكن الا تكون غير ظاهرة ثانوية . أن تحسين الأوضاع لفترة قصيرة عند الجماهير لا يعني شيئاً في بلاد لا يختار الشعب فيها حكومته ، وحيث تكون أجهزة القمع من القوة بحيث تستطيع أن تسحق أي اضطراب وحيث تعتبر كل حياة مكرسة لخدمة الغرض النهائي الذي هو انتصار الاشتراكية على الرأسمالية . أن البطالة الشاملة للاحباط الكبير ، مثلاً ، قد زلزل جذور المجتمع الأميركي في الوقت الذي كان فيه ملايين عديدة يهلكون من الجوع في أوكرانيا السوفياتية دون أن يشعر أحد بوجود أزمة . ولكن عندما فهم لينين بأن الثورة الاشتراكية العالمية عام ١٩٢١ م ليست قريبة في المستقبل المنظور ، فقد خامره الاحساس بالأزمة . وهنا أعلن سياسته الجديدة وخطة الإنتقال من الهجوم إلى الحصار " نحن في وضع رجال أمروا بالتراجع المنظم من أجل استئناف الهجوم فيما بعد ".

أن شيئاً شبيهاً بذلك قد حدث في نهاية سنوات السبعينات وبداية الثمانينات . فالبرغم من تعاقب الفشل الإقتصادي ومن هبوط مستوى الانتاج ، ومن أن نمو الإنتاج الوطني الخام قد اقترب من الصفر ، والأخطر من ذلك ، أن الموارد الطبيعية قد استنزفت ، فان هذه المعضلات لم تحدث أثرها السيء بصورة مباشرة على ظروف العيش عند الجماهير ، ذلك لأن هذه الأخيرة لم تكن مختلفة عن تلك الموجودة عام ١٩٦٥ م بل الذي تأثر حقاً هو احتمال أن يعجز الاتحاد السوفياتي عن تحقيق رسالته التاريخية . فلو

مضت بعد ذلك سنوات لما كان في وسع السوفيات أن يساعدوا انغولا وكوبا وفيتنام والحبشة . ولتعرض مصير الاشتراكية للخطر . ان انهيار العالم الثالث ، ثم الاقمار الصناعية الأوروبية الذي يترتب على ذلك ، يثير سلسلة من ردود الفعل السلبية داخل الاتحاد السوفياتي . واذاً فان على السوفيات أن يتراجعوا لاستئناف الهجوم فيما بعد . أما ما لم يقدره غورباتشيف ولم يتوقعه فهو أن البيريسترويكا والغلاسنوسرت أشبه ما تكونان بعلبة ياندور في الأسطورة اليونانية . فان عدد التظاهرات ، والإجتماعات غير الشرعية ، والاحتجاجات أو الاضرابات قد زاد يوماً بعد يوم . وقد أحصت صحيفة تايمز اللندنية أحصت مائتين من هذه التظاهرات وغيرها تقريباً خلال ثلاثة أشهر (شباط ، آذار ، نيسان من عام ١٩٨٨) . وبعيداً عن التوافق مع روزنامة غورباتشيف ، فان هذه الإحتجاجات والمطالب وضعت المعضلات القومية في مقدمة الأحداث ، وكذلك المسائل الأيديولوجية ، والحريات الدينية والسياسية .

****

وبالرغم من أن الاضطرابات الدرامية قد أثرت حديثاً في أرمينيا وأزربيجان ، فان عشرات غيرها من الإحتجاجات والتظاهرات المنظمة لخلق حيوية سياسية جديدة قد تعاقبت في الوقت نفسه . بعضها كان عنيفاً ، وبعضها الأخير كان دون ذلك . أما الأجهزة الإعلامية الرسمية فلم تتحدث الا عن بعضها ، رغم حرية التحقيقات الصحفية التي منحت بسبب مبدأ الغلاسنوسرت .

هذه الأحداث لها أبعاد ونوعيات غير عادية . أنها تثبت أنه لا يوجد عملياً أي أقليم كثيف السكان في الاتحاد السوفياتي لم يتأثر بالمشاهد غير العادية سابقاً لمجموعات صغيرة من الفتيان والفتيات يلوحون بيافطات ويرددون شعارات كان الناس يرددونها همساً وفي الخفاء . ففي اقليم تيمان الضائع في سيبيريا ، بادر شبان من سكان قرية كومسومولسكي إلى رفع يافطات كتب عليها :

" نحن نكافح من أجل حريات الإنسان ، من أجل الديمقراطية نحن لسنا عبيداً للحزب الشيوعي من الإتحاد السوفياتي ".

إن هـذا المشـهد يعكـس بحـرارة وقـوة تـردد السـلطات المحليـة الـتي تجابـه خيـارات جديـدة . وفي بعـض المناسـبات كانـت منظمـة " ك . ج . ب المخـابرات " ورجـال الميليشـيا قـد فرقـوا المتظـاهرين بالقسـوة والبربريـة المتعارف عليها بينما في مناطق أخرى لم يحدث أي اعتراض .

****

مـا الـذي نخـرج بـه ونحققـه مـن الـرأي بعـد الـذي عرضـنا لـه مـن الأحـداث ؟ نعتقـد أن الجـواب عـن ذلـك مشـروط بايـراد الجوانـب الأخـرى مـن الوقـائع والمواقـف في الاتحـاد السـوفياتي . ولـذلك نعـود إلى هـذا الموضـوع في حلقة تالية .

- **الإتحاد السوفياتي يملك أكبر قوة قمع داخلية في العالم .**
- **٧٥٠ ألفـاً مـن الجنـود والضـباط مـزودون بكـل أنـواع الأسـلحة البريـة والجويـة لاسـكات أصـوات المطالبين بالإستقلال.**
- **فريقـان مختلفـان في فهـم الغـرض مـن الييريسـترويكا : الفريـق الرسمـي يريـد منهـا انقـاذ النظـام والفريق الآخر يريد منها تغيير النظام .**
- **تعاون الغرب مع غورباتشيف خطة وقائية لا تجاوب مع قيم الديمقراطية والحرية.**